حوليات جامعة قالمة للعلوم الاجتماعية والإنسانية
ISSN: 1112-7880 EISSN: 2602-5361
المجلد 19/العـدد 2 (ديسمبر2025)، ص51- 68

جوانب من السيرة النبويـّة في كتابات المستشرق "مونتجمري وات"
- قراءة في كتابه "محمد في مكة"-

Aspects of the Prophet's biography in the Writings of the Orientalist "Montgomery Watt" - A Reading in His Book "Muhammad in Mecca"

فايزة لولو *

جامعة محمد الشريف مساعدية – سوق اهراس(الجزائر)، fayzalou@univ-soukahras.sa

تاريخ الاستلام: 2025/02/15 تاريخ القبول: 19/05/ 2025 تاريخ النشر: 2025/12/15

ملخص:

نتناول في هذا البحث الآليات المنهجية والتأويلية؛ التي اعتمدها المستشرقون بصفة ذاتية وغير علمية في التعاطي مع محور هامّ من محاور الشريعة الإسلامية، يتعلّق الأمر بمحور السيرة النبوية، كونها مجالا حسّاسا لدى المسلمين، نظرا لطابعها الديني والعقائدي؛ حيث بُنيت عليها عديد العلوم الشرعية ؛كعلم التفسير والعقيدة والحديث والفقه وأصول الفقه والفتوى..وغيرها. وقد خلقت تلك الرؤى آثارا بالغة الخطورة؛ ليس فقط داخل المنظومات الغربية؛ بل داخل منظومات متعدّدة لدى المجتمع المسلم فكرا وعقيدة وتاريخا. اخترنا من هؤلاء المستشرقين "مونتجمري وات" من خلال كتابه " محمد في مكة".

الكلمات المفتاحية : *الاستشراق، التحيّز، الفكر الاستشراقي، الانطباعية، التأويل.*

Abstract:

The focus of this study is the methodological and interpretive mechanisms used by Orientalists in their treatment of a vital theme of Islamic Shari'ah, namely the Prophet's biography, as it is a sensitive area for Muslims due to its religious and doctrinal significance. Many Islamic legal disciplines, including interpretation, creed, Hadith (narration), Fiqh (jurisprudence), and Fatwa, build on the Prophet's biography...etc. These perspectives have had a significant impact, creating highly dangerous consequences not only within Western systems, but also within Muslim communities concerning their beliefs, thoughts, and history.

Among these Orientalists, we have chosen 'Montgomery Watt' through his book 'Muhammad in Mecca'.

***Keywords**: Orientalism, bias, orientalist thought, impressionism, interpretation.*

* المؤلف المرسل

- مقدمة:

شكّلت السيرة النبوية مجالا خصبا لاهتمامات المستشرقين، وذلك لما تمثّله من مرجع عقائديّ مهمّ في وعي المسلمين، إذ عليها قامت الكثير من العلوم والمعارف كعلم التفسير والفقه وأصول الفقه والفتوى. ومنها تأصّلت أخلاق المسلمين ومعاملاتهم وسلوكاتهم، وأنظمتهم الاجتماعية كالزواج والطلاق والبيوع والعقود... وغير ذلك.

حاول عديد الكتّاب المستشرقين تقديم دراسات تمّ تضمينها عدّة مغالطات واتّهامات للنبي صلى الله عليه وسلم، وتجلّى ذلك في عديد المحطات المفصلية في السيرة النبوية؛ محاولين بذلك تقديم تصوّر انطباعيّ خاطئ ومشوّه تاريخيّا وعمليّا للسيرة، وهو ما يكشف التعصّب الديني والعنصري لدى هؤلاء الذين سعوا جاهدين لخلق قناعات مزيّفة عن المسلمين لدى بعض المنتسبين للإسلام، وغير المسلمين حول موضوع السيرة من جانب؛ والحطّ من قيمة الرسول الكريم من جانب آخر، بل إنّ بعضهم نفى عنه صفة الرسالة والنبوّة بالكامل.

وعليه؛ حاولنا في هذه الورقة البحثية التركيز على واحد من كبار المستشرقين البريطانيين الذين اهتموا بسيرة النبي صلى الله عليه وسلم، وهو المستشرق "مونتجمري وات"؛ وذلك من خلال كتابه "محمد في مكة". منطلقين من إشكاليات هي كالآتي: كيف بدت صورة محمد صلى الله عليه وسلم في كتاب" محمد في مكة"؟ ما مدى التزام المستشرق"وات" بالموضوعية والعلمية في طرح موضوع السيرة النبوية؟ وما هي المصادر التاريخية والدينية التي استند إليها في عمله هذا؟ ما المنهج المعتمد في قراءة محطات السيرة النبوية العطرة؟

المستشرق" مونتغمري وات" والاهتمام بالسيرة النبوية:

كتب مونتغمري وات ثلاث كتب عن النبي صلى الله عليه وسلم هي كالآتي" محمد في مكة"، "محمد في المدينة" و"محمد النبي ورجل الدول "، إضافة إلى كتب أخرى كثيرة تطرح قضايا الإسلام عامّة- وتعدّ هذه الكتب الثلاث من أكثر الكتابات الاستشراقية شهرة، وأكثرها إحاطة بالسيرة النبوية؛ لما حوته من تضليل معرفي، وتوهيم عاطفي بالتحلي بالموضوعية والحياد. لكن الحقيقة غير ذلك؛ حيث سجّلنا -نحن وغيرنا من الدارسين- الكثير من الاتهامات والمغالطات التي حاول هذا المستشرق تمريرها عبر وهم الموضوعية والعلمية والحياد الذي ادّعاه في دراسته للسيرة النبوية، وقد تجلّت تلك المغالطات في نقاط كثيرة، من ذلك اعتقاده

من أنّ الإسلام تأثّر بالديانات الأخرى ليؤكد أن الإسلام ما هو إلا تعديلات وقعت على الديانة المسيحية واليهودية والإتيان بديانة جديدة هي الإسلام. وهو بذلك ينكر أن الدين الإسلامي دين نزيه عن جميع الديانات السابقة.يقول بهذا الصدد:" ولاشك أن بذور التوحيد هذه عند العرب قد ظهرت بفعل التأثيرات المسيحية واليهودية، فلقد أتيحت للعرب مناسبات عديدة للاتصال بالمسيحيين واليهود إذ كانت الإمبراطورية البيزنطية التي كانوا يعجبون بقوتها ومدنيتها مسيحية."[1] وأن النبي محمد صلى الله على ومحمد صلى الله عليه وسلم؛ استنجد في دعوته ببني عامر ونوفل وأسد وتأثّر بأفكار ورقة بن نوفل، وعليه؛ فإن وات يحاول أن يبني من خلال تبنيه منهج التأثير والتأثّر أن الإسلام ذو أصول مسيحية ويهودية، وهذا المنهج لا يخلو من أهداف عدائية تجاه الدين الإسلامي، وأن دعوة محمد صلى الله عليه وسلم ما هي إلا نتيجة تأثّره بهذه الديانات، وهو بهذا يحاول ردّ كل ما وصلنا عن السيرة العطرة، واعتباره ذا أصول يهودية ومسيحية. يقول الباحث جواد علي بخصوص هذه الفكرة: "إنّ معظم المستشرقين النصارى هم من طبقة رجال الدين، أو من المتخرّجين من كلّيات اللاهوت، وهم عندما يتطرّقون إلى الموضوعات الحسّاسة من الإسلام؛ يحاولون جهد إمكانهم ردّها إلى أصل نصراني، وطائفة المستشرقين من اليهود وخاصة بعد تأسيس (إسرائيل) وتحكّم الصهيونية في غالبيتهم ...يجهدون أنفسهم بردّ كل ما هو إسلامي وعربي لأصل يهودي، وكذا الطائفتين في هذا الباب لسلطان العواطف والأهواء."[2] فهو بذلك ينكر نزاهة ومصداقية ويقينية الدين الإسلامي، ويسعى إلى هدم أسسه النزيهة عن الديانات السابقة، وينسب تفرّده وكماله إلى الديانات السابقة وهذا لتأكيد أفضلية اليهودية والنصرانية على الدين الإسلامي.

في هذا المقام؛ ينقل الباحث محمد زقزوق عن ريتشار دبل صاحب كتاب " مقدمة القرآن " " أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قد اعتمد في كتابته للقرآن على الكتاب المقدس، وخاصة على العهد القديم في قسم القصص فبعض قصص العقاب كقصص عاد وثمود مستمد من مصادر عربية، ولكن الجانب الأكبر من المادة التي استعملها -محمد صلى الله عليه وسلم- ليفسر تعاليمه ويدعمها قد استمده من مصادر يهودية ونصرانية، وقد كانت فرصته في المدينة للتعرف على ما في العهد القديم أفضل من وضعه السابق في مكة حيث كان على اتصال بالجاليات اليهودية في المدينة ، وعن طريقها حصل على قسط غير قليل من المعرفة بكتب موسى على الأقل."[3] ولعل القرآن الكريم قد تولى الرد على هذه الشبهة قبل 14 قرنا

في الآية الكريمة " ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين" [4]

●منهج مونتغمري وات بين الموضوعية والتحيّز:

يحاول وات أن يستجلب تعاطفنا معه؛ وينال رضانا عنه-نحن كمسلمين- فيصرّح منذ البداية أنه سيلتزم الحياد والموضوعية والعلمية في تعامله مع النصوص الإسلامية، وذلك لما شاع عن أغلب المستشرقين من تحيّز وتحريف للحقائق التي جاء بها الإسلام، ويرى أنّ الغرب في غنى عن المسلمين بحكم تفوّقهم المادي والحضاري، ولا مبرّر للادّعاء أو التطاول على الإسلام، يقول في إحدى المحاضرات:" إنّ الأوروبيين في عصور النهضة كان لا يزال لديهم إحساس بالنقص بالنسبة للمسلمين، ولذلك عمد مفكّروهم إلى تشويه حقائق الإسلام فعرضوا الإسلام وتاريخ المسلمين في صورة منفّرة، ولكنّنا معشر الغربيين في القرن العشرين لم تسيطر علينا عقدة النقص كما كان الحال في عصر النهضة، وذلك بعد أن انتقل زمام السيادة إلى أوروبا وأصبحت لها السيطرة والغلبة، ولذا أصبحنا الآن لا نجد حرجا في ذكر الحقائق دون تحريف، وبالتالي ظهر الإنصاف والموضوعية في ما نكتب عن الإسلام والمسلمين."[5] في القول؛ اعتراف مضمر بالعداء الشديد من المجتمع الغربي للدين الإسلامي.

ويقول في مطلع كتابه" الإسلام والمسيحية في العالم" "والمنهج الذي اتخذته في هذه الدراسة هو أن أصل -بقدر ما أستطيع- إلى مستوى الحقيقة الخالصة، ولن أتعرّض للقرآن باعتباره من إنتاج (تأليف) محمد_صلى الله عليه وسلم)، وإنما باعتباره وحيا."[6] ويقول أيضا " ومنهجنا في هذه الدراسة هو الوصول إلى المقصود من خلال القرآن والسنة." [7]

ويقول في مقدمة كتاب " محمد في مكة:"ولقد حاولت المحافظة على الحياد في المسائل اللاهوتية (الدينية) التي يدور حولها النقاش بين المسيحية والإسلام ."[8] إن "وات" من خلال هذه التصريحات؛ يريد أن يبدو منصفا وعادلا منذ بادئ الأمر، وهذا ما تشكّلت عنه مغالطة لدى الكثير من الباحثين المسلمين؛ ممّا دفعهم إلى تصنيفه ضمن المستشرقين المنصفين، وأنا شخصيّا ضدّ فكرة أن يكون هناك مستشرقون منصفون، خاصة إذا تعلّق الأمر بدراسة الجوانب المرتبطة بالدين والعقيدة. والوحي؛ وإن وجدوا؛ فهم مسلمين، لأن الأمر يتعلّق بالعقيدة والانتماء العقائدي، وهو ما يستوجب الإيمان والتوحيد.

من جهة أخرى؛ يحاول وات أن يرد على بعض الغربيين المعادين للإسلام، ويدحض بعض أفكارهم المغلوطة موهما إيّانا - نحن كمسلمين- أنّه في صفّ المسلمين الموحّدين، وجالبا لتعاطفنا معه. مثال ذلك ردّه على القائلين بأنّ محمدا صلى الله عليه وسلّم كان به مسّ من الصرع يقول:"لقد أكّد الإسلام غالبا أنّ محمدا (صلى الله عليه وسلم) كان مصابا بالصرع، **épileptique** وأن تجاربه الدينية لهذا النقص يؤدي إلى تخاذل جسدي وعقلي، بينما ظلّ محمد(صلى الله عليه وسلم) حتى آخر حياته مالكا لقواه العقلية حتى ولو أمكن ادّعاء ذلك؛ فإن الحجة تظل مناقضة لكل رأي سليم، إذ لم تقم إلا على الجهل والوهم، لأن المظاهر الجسدية الملازمة لا تثبت ولا تنفي قط بنفسها التجربة الدينية."[9] رغم اعترافه به صلى الله عليه وسلم بأنه في كامل قواه العقلية والجسدية ودحضه لفكرة المس أو الجنون التي ادّعاه غيره من الغربيين، إلا أنه لم يذكر محاسنه كرجل خارق استطاع بتوفيق من الله تعال الذي أيّده بالرسالة والنبوة أن يخلّد اسمه زمانا ومكانا، كما أنه لم يتطرّق لمعجزاته وبركته التي تمتّع بها كنبيّ.

من جهة أخرى؛ يفصح"وات" أنه تبنّى المنظور المادي بحجّة التزامه بالنزاهة التاريخية، فهو يكتب كموحّد على حدّ تعبيره، فيزعم أنه التزم بالمقاييس العلمية التاريخية الغربية، وألّا يقول شيئا يُفهم منه رفض أي مبدأ من مبادئ الإسلام الأساسية ....[10] متناسيا أو متغافلا أنّ المعتقدات والأديان لا يمكن إخضاعها للمنهج المادي، لأنها تتعالق مع العالم الغيبي، وبالروحانيات كالإيمان بالله والملائكة ويوم البعث والجنة والنار والحساب وغيرها من الأمور التي لا تحتكم للمنهج المادي.

- **موقف "مونتجري وات" من بعض محطات السيرة النبوية:**

لا يسعنا -في هذا المقام-؛ أن نطرح كل جوانب السيرة النبوية التي تطرّق لها المستشرق "مونتغمري وات"في كتابه " محمد في مكة " بالنقاش والردّ والتعليل، وذلك لضيق المقام من جهة؛ وسعة الدراسة الاستشراقية لهذه المحطات من جهة أخرى، فقد تتبّع وات كل محطات السيرة النبوية للنبي صلى الله عليه وسلم من قبل ولادته صلى الله عليه وسلم إلى غاية وفاته؛ دون أن يترك حدثا أو واقعة في حياته؛ لذلك سنكتفي ببعض النقاط محاولين تبيّن رؤيته

الاستشراقية منها، وكذا الوقوف على الردود عليها، ساعين إلى طرح موقفنا من هذه الإدعاءات والتحريفات؛ سواء على مستوى الحدث أو على مستوى التأويل والتعليل.

01- مولده ورضاعته:

يورد مونتجمري وات تاريخ ولادة النبي صل الله عليه وسلم وهي عام الفيل أين حاول أبرهة الحبشي هدم الكعبة، أي حوالي سنة 570م؛ وهذا التاريخ لا يكاد يختلف فيه اثنان من مؤرخي السيرة النبوية الشريفة، فقد أجمعت المصادر الإسلامية على ذلك، وقد أثبت وات هذا الأمر لعدم وجود خلاف حول ذلك. يقول :" ولد محمد –صلى الله عل محمد صل الله عليه وسلم- عام الفيل حين فشل أبرهة في حملته على الكعبة، وكان ذلك نحو عام 570م، وربما ولد بعد وفاة أبيه ونشأ في رعاية جدّه عبد المطلب." [11]، أورد وات تاريخ ميلاد النبي صلى الله عليه وسلم مفرغا من كل ملابساته المعجزة، وتحولات الكون المفاجئة بمجيئه صلى الله عليه وسلم، لما في ذلك من تأكيد لنبوّته ورسالته صلّى الله عليه وسلم، كما أورد حادثة الفيل دون أن يذكر سبب فشل أبرهة في هدم الكعبة؛ كما أغفل طير الأبابيل التي حمى بها الله تعالى بيته الحرام، وفي كل ذلك أبعاد واضحة لمعجزات النبي صلى الله وسلم التي تؤكّد نبوته.

يورد المباركفوري في كتابه الرحيق المختوم:" ولد سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم بشعب بني هاشم بمكة في صبيحة يوم الاثنين التاسع من شهر ربيع الأول، ولأربعين سنة خلت من ملك كسرى أنو شروان ويوافق ذلك العشرين أو الثاني والعرشين من شهر أفريل سنة 571م ...

وروى ابن سعد أنّ أمّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت: لما ولدته خرج من فرجي نور أضاءت له قصور الشام. وروي أن إرهاصات البعثة وقعت عند الميلاد فسقطت أربعة عشر شرفة من إيوان كسرى، وخمدت النار التي يعبدها المجوس، وانهدمت الكنائس حول بحيرة ساوى بعد أن غاضت ...وروى ذلك البيهقي.."[12] وفي كل ذلك بشارة خير تنبئ عن بعثته كخاتم للأنبياء والمرسلين، وقد أحجم المستشرق عن ذكرها تنكّرا منه لنبوتّه صل الله عليه وسلم، وعداء منه للرسالة المحمدية الشريفة، وللدين الإسلامي بشكل عام شأنه شأن المجتمعات الغربية ككلّ.

أما عن رضاعته صلّى الله عليه وسلم، فقد توافقت رؤية وات أيضا مع ما هو شائع في مختلف المصادر الإسلامية؛ من أنّه صلى الله عليه وسلم قد تكفّلت برضاعته حليمة السعدية بنت ذؤيب من بني سعد، وقد اعتمد وات عل رواية ابن إسحاق. حيث يقول:" كان من عادة الطبقات العليا في مكّة أن تدفع بأبنائها إل حاضنات من القبائل البدوية، حتى ينمو الطفل في الصحراء، فيغدو قويّ البنية. وهذا ما حدث مع محمد (صلى الله عل محمد صل الله عليه وسلم) طوال عامين أو أكثر، فقد رعته حليمة السعدية وهي امرأة من بني سعد بن بكر من قبيلة هوازن."[13] وهو بذلك يتوافق مع ما جاء في كتب السيرة الموثوق بها؛ نقصد من حيث الخبر لا من حيث الحيثيات المصاحبة لرضاعته. فقد تحدّثت حليمة السعدية عن ملابسات رضاعته صلى الله عليه وسلم فقالت:" قدمت مكّة مع نسوة من بني سعيد بن بكر نلتمس الرضعاء في سنة شهباء جدباء أنا وزوجي الحارث بن عبد العزّى ويكنّى بأبي كبشة، وابن لنا ربع وكنت راكبة أتاناً ومعنا شارف (ناقة مسنّة) والله ما تبض بقطرة. وما ننام ليلنا لبكاء رضيعنا من الجوع، ما في ثديي ما يغنيه وما في شارفنا ما يغذّيه، فقدمنا مكة نرجو الفرج ؛ فوالله ما منّا من امرأة إلا وعرض عليها رسول الله صلى الله عليه سلم فتأباه لأنه يتيم الأب ... فوالله ما بقي من امرأة إلا أخذت رضيعا غيره، فلمّا حان وقت الرحيل قلت لزوجي: أكره أن أرجع مع صواحبي ليس معي رضيع، لآخذن ذاك اليتيم .قال عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة..."[14] وفي هذا المقام أيضا يتجاوز المستشرق ملابسات رضاعته من حليمة السعدية، وما صحب ذلك من نزول الخير والبركة في بيت حليمة بعد القحط والجفاف الذي كان في قبيلة بني سعد، فقد أوردت المصادر الإسلامية تفاصيل الحادثة، من ذلك نذكر: "...لما وضعته في حجري(تقول حليمة السعدية) أقبل عليّا ثدياي بما شاء من لبن، فشرب حتى روى وشرب معه أخوه، حتى روي ثم نام. وما كنّا ننام معه قبل ذلك، وقام زوجي إلى شارفنا فإذا هي حافل فحلب منها ما شرب وشربت معه؛ حتى انتهينا ريّا وشبعا، فبتنا بخير ليلة. قالت يقول صاحبي حين أصبحنا : تعلمي والله يا حليمة لقد أخذت نسمة مباركة، قالت: فقلت والله إني لأرجو ذلك، قالت ثم خرجنا فركبت أنا أتاني وحملته عليها معي، والله لقطعت بالركب ما لا يقدر عليه شيء من حمرهم، حتى إنّ صواحبي ليقلن لي:يا ابنة أبي ذؤيب، ويحك أربعي علينا . أليست هذه أتانك التي كنت خرجت عليها؟ فأقول: بلى والله إنها لهي هي، فيقلن والله إنّ لها شأنا..."[15] والحديث يطول في سرد الخير الذي لاقاه بنو سعد بمجيء النبي صلى الله عليه وسلم

إليهم، فقد تحوّلت أرضهم من القحط والجفاف والفقر إلى أرض مليئة بالخيرات والبركات، وهذا ما لم يورده المستشرق وات، ولم يهتمّ به في دراسته للسيرة النبوية. رغم أنه مثبت في أغلب مصادر السيرة وأوثقها.

02- زواجه من خديجة:

يقف وات عند نقطة مهمّة في مسار حياته صلى الله عليه وسلم، وهي زواجه من خديجة رضي الله عنها وأكثر ما يركز عليه؛ هو سنّها عند الزواج منه صلى الله عليه وسلم، هذه النقطة يشكّك فيها وينفي أن يكون كما هو منقول لدى بعض المصادر الإسلامية أنه أربعين سنة، ويرى أن ذلك مبالغ فيه. حيث يقول:"وربما كان عمر خديجة (رضي الله عنها) مبالغا فيه، فقد ذكرت المصادر أسماء سبعة ولدتهم لمحمد صلى الله عليه وسلم وهم: القاسم ورقية وزينب وأم كلثوم وفاطمة، وعبد المطّلب (الطيب) والطاهر ، وحتى لو كان السبعة قد ولدوا في سنوات متتالية، كما يذكر رواة أحمد بن سعد، فإنّ هذا يعني أنّ عمرها كان قد بلغ الثامن والأربعين حين ولدت الابن الأخير ، وهذا أمر مستحيل بأيّة حال ويعتبر أمرا غير عاديّ بالدرجة التي تجعله يستحقّ التعليق، بل إنه من الأمور التي يمكن اعتباره معجزة."[16] ويعلّق على هذا الزواج بقوله:" ولقد سُرّت خديجة (رضي الله عنها) بما فعله محمد (صلى الله عليه وسلم) وبلغ إعجابها بشخصيته أن عرضت عليه الزواج منها فوافق."[17]

ويعلّل ذلك تعليلا ماديا بحتا بقوله:" ...لأنه يعني له صلى الله عليه وسلم صفقة كبيرة، لسبب واحد أنه أعطاه فرصة ممارسة مواهبه بنشاط بشكل رئيسي في التجارة المكيّة؛ ممّا مكّنه من الانخراط في مشاريع مربحة."[18] ونلاحظ أنه علّل هذا الزواج تعليلا ماديا ليثبت طمع النبي صلى الله عليه وسلم في ثروة خديجة وحاشاه صلى الله عليه وسلم، وفي هذا المقام يرد الباحث مور" " أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يتمتع بتلك الثروة ولم يتلذذ بها، بل قضى حياته فقيرا .ويروى أنه مات ودرعه مرهونة." [19]

إنّ نكران المستشرق لهذا الأمر - نقصد أن تلد خديجة رضي الله عنها وهي في سنّ السابع أو الثامن والأربعين -رغم أنّه مثبت في الكثير من المصادر الموثوقة- يوحي بالعداء الشديد منه للنبي صلى الله عليه وسلم، وإلّا فإنّنا إلى يومنا هذا كثيرا ما رأينا نساء أنجبنا وهنّ على مشارف الخمسين، فضلا عمّا ورد من أخبار السيدة هاجر زوج سيدنا إبراهيم عليه وعلى نبينا

الصلاة والسلام كما يذكر ذلك القرآن الكريم. أمّا أن يعلّل زواجه صلى الله عليه وسلم من خديجة بأنّه بهدف الطمع في تشكيل ثروة؛ فإنّ ذلك لا يقبله العقل السليم، بل هو ضرب لشخصه صلى الله عليه وسلم واتهام له وهو من كل ذلك بريء، فقد تناسى بل نسي المستشرق أنّه صلى الله عليه وسلم كان باستطاعته أن يكون ملكا على العرب والعجم لكنّه أبى، لماذا لم يعد المستشرق للحديث الوارد في الكثير من مصادر السيرة، من أن عمّه أبا طالب جاءه ليعرض عليه رأي قريش من أن يكفّ عن الدعوة وله ما يطلب، فأتى النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأخبره بأمرهم، فردّ عليه بالجواب التاريخي الخالد، والذي يعتبر من أسطع وألمع السطور في حياة قائد الإسلام الأكبر محمد صلى الله عليه وآله وسلم: "يا عمّ، واللّه لو وضعوا الشمس في يميني والقمرَ في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهِرَه اللّه، أو أهلك فيه، ما تركته». ممّا أثّر في عمّه بتلك الكلمات العظيمة، فأظهر استعداده الكامل للوقوف إلى جانبه قائلاً: اذهب يا ابن أخي فقل ما أحببتَ،فواللّه لا أُسْلِمَكَ لشيءٍ أَبداً" وحاولت قريشٌ مساومة أبا طالب مرةً أُخرى، للتخلّص من النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» ودعوته، إلاّ أنّه رفض أي نوع من المساومة في هذه القضية، محافظاً على محمّد ودينه. فسلكوا طريقاً آخر، ووسيلة أجدى لإثناء النبي صلى الله عليه وآله وسلم" عن المضي في دعوته،وهي تطميعه بالمناصب والهدايا والأموال والفَتَيات الجميلات: فإن كنتَ إنّما جئتَ بهذا الحديث تطلبُ به مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثر مالاً، وإن كنتَ إنّما تطلب الشرفَ فينا فنحن نسوّدُكَ ونشرّفك علينا،وإن كان هذا الذي يأتيك تابعاً من الجنّ قد غلب عليك،بذلنا أموالنا في طِبّك."[20] لكنه صلى الله عليه وسلم تعفّف عن كل تلك العروض المغرية، وتلك المناصب الزائلة ليسخّر حياته لحمل الرسالة، وتبليغها للناس كافّة. فأين هو الطمع الذي يومئ إليه هذا المستشرق؟

03- الخلوة في غار حراء:

لا ينكر "وات" هذه الحادثة في مسار سيرته صلى الله عليه وسلم، بل يثبتها نقلا عن المصادر الإسلامية التي تقريبا تثبتها جميعها، لكنه يحاول تعليل هذه الخلوة من منظوره الخاص. فيقول: "ربما كان ذلك وسيلة للهروب من حرارة مكّة في موسم متعب؛ لمن كانوا لا يستطيعون الذهاب إلى الطائف؛ ويمكن أن يكون للتأثير اليهودي والمسيحي أو بعض التجارب الشخصية أو الحاجة والرغبة في العزلة."[21] ويؤكّد أيضا أن بواعث هذه العزلة " إنما"السعي إلى

الوحدة ليلجأ إلى الأمور الإلاهية، ويؤدي بعض العبادات، وربما طلبا للتكفير عن الخطايا."[22] يحاول "وات" منذ البداية أن يفرغ هذا السلوك منه صلى الله عليه وسلم الذي كان يقوم به مرة بعد مرة؛ من كل محتوى تعبديّ، وأن يربطه برغبة شخصية أو تأثّرا برهبان وقساوسة اليهود والمسيحيين، دون أن يخطر بباله أن ذلك ربما كان تهيئة منه سبحانه وتعالى له لتحمّل عبء الرسالة التي ستلقى إليه.

ويقول أيضا:" أدى اهتمام محمد بمشاكل مكّة في هذه الفترة إلى التماس العزلة، ففي واد من التلال الصخرية الجرداء في مكان قريب، كان ثمّة كهف يذهب إليه أحيانا لعدة ليال كل مرة كي ينفرد بنفسه، ويصلي ويتأمّل. وخلال هذه الليالي حصلت له تجارب غريبة بادئ الأمر كانت ثم أحلام خصبة أو رؤى."[23]

بغض النظر عن المنحى العقائدي الذي ينتابنا نحن كمسلمين، فإنّه لا يتصوّر أنّ شخصا يذهب إلى غار في أقاصي المعالي من جبال مكّة لأسباب واهية كتلك التي ذكرها المستشرق، فقد ثبت أن الغار يبعد عن مكة بما يقارب الأذرع كيلومترات وارتفاعه حوالي ستمائة متر، ومساحته لا تتجاوز الأذرع فهو ضيق ومظلم فكيف يكون مكانا للراحة والترفيه؟

يقول صاحب كتاب "النبي محمد في مؤلفات مونتجمري وات عن السيرة النبوية" ردّا على هذه الرؤيا الاستشراقية المعادية:"إنّ المحتوى الحقيقي لهذه الخلوات كان غرضه صلى الله عليه وسلم منها هو الاهتداء إلى خالق حقيقي لهذا الكون، خالق يستحق أن تصرف العبادة له دون سواه، كما كان ساخطا على ما كانت تعجّ به مكة من فواحش ومنكرات، فعافت نفسه هذه الأجواء، وراح يبحث عن دواء فهداه الله إلى خير الأديان."[24] وأيّده بالرسالة لأنه كان مؤهّلا لحملها من بين كل البشر. فضلا عن ذلك فقد كان صلى الله عليه وسلم عفيفا طاهرا نقيا تقيا، لم يسجد لصنم قط... إنه الصادق الأمين، ولعلّه لجأ لهذه الخلوات ترفّعا منه عمّا كان يجري في مكّة من عبادة الأوثان وارتكاب الفواحش والرذائل، فلجأ إلى غار حراء طلبا للصفاء والهدوء، للتأمّل والتفكير في عجائب الكون، رغبة في الاهتداء للخالق الأكبر سبحانه.

04- الوحي:

يقول وات:" القول أن محمدا كان صادقا لا يعني أن القرآن وحي حق، وأنه من صنع الله؛ إذ يمكن أن نعتقد بدون تناقض أن محمدا كان مقتنعا بأن الوحي ينزل عليه من عند الله،

وأن نؤمن في الوقت نفسه بأنه كان مخطئا."[25] يومئ هذا المستشرق أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى شيئا فتخيّله وحيا وأبلغ الناس به دون أن يكون ذلك حقيقة، وإنما ضرب من الخيال والأوهام. لكن لماذا صدّقه الناس ولا يزالون يصدقونه في كل بقاع الأرض.؟

ويقول في موضع آخر: "يعتقد المسلمون السنّيون أنّ القرآن في أصله من مصدر إلاهي بأكمله هو كلام الله غير المخلوق(وإن كانت الأصوات والكتابات على الورق ..مخلوقة) ويعتقد العربي المدني (أو ربما اعتقد) إذا أخذ بالتمييز الذي قام به محمد) أن القرآن من صنع شخصية محمد غير الواعية."[26]

ويقول: " لقد حاولت أن أعبّر بصورة لا تنكر أية عقيدة أساسية من معتقدات الإسلام، بعيدا عن كل مجاملة كما استعملت دائما كلمات مثل " القرآن يقول " وليس "محمد يقول"ومن جهة ثانية حيث أشير إلى مقطع نزل على محمد مثلا، فلا يجب أن يعني ذلك موافقة تامّة لوجهة النظر الأولى، فأنا أستعين بالرواية الإسلامية تاركا للقرآن أن يتمّ ذلك ب(كما يقول المسلمين) أو أي جملة أخرى مشابهة أقول هذا لتجنّب أي التباس."[27] تؤكّد هذه الرؤيا تردد هذا المستشرق وارتيابه من فكرة الوحي، فنراه ينسب القرآن تارة إلى الله وتارة إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وفرضا لو سايرنا المستشرق في موقفه من أنّه من تأليف النبي صلى الله عليه وسلم وحاشاه صلى الله عليه وسلم من ذلك، فهلّا تساءل المستشرق كيف لواحد من البشر أن يؤلّف كتابا محكما عقيدة وعلما وفقها ودستورا كالقرآن الكريم وهو الأمي الذي لا يقرأ ولا يكتب ؟

يعلّق وات على عبارة " ثم فتر الوحي على رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى حزن حزنا عدا به مرارا كي يتردى من رؤوس شواهق الجبال "بقوله:" ويمكن تمييز تجربتين خاضهما الرسول -صلى الله عليه وسلم-: الأولى الخوف من تجربة الوحي، والثانية يأسه الذي أدى به للتفكير في الانتحار."[28] نرجّح أن وات خمّن هذا التفسير حتى يزعزع إيمان الموحّدين، ويبعث في نفوسهم الشكّ والتساؤل، وإلا فقد ثبت عنه صلى الله عليه وسلم النهي عن قتل النفس فكيف يفعل هو هذا الأمر؟ يقول: من تردّى من جبل فقتل نفسه فهو في نار جهنم يتردّى فيه خالدا مخلدا فيها أبدا، ومن تحسّى سمّا فقتل نفسه فسمّه في يده يتحسّاه في نار جهنم خالد مخلّدا فيها أبدا، ومن قتل نفسه بحديدة فحديدته في يده يجأ بها في بطنه في نار جهنم خالدا مخلدا فيها أبدا."[29]

نلمس في هذه الأقوال ذلك التناقض الذي وقع فيه المستشرق، وهو تناقض يرمي به إلى هزّ عقيدة المسلمين الموحدين والتابعين للنبي صلى الله عليه وسلم، لذلك يكثر من هذه الأقوال والآراء المتناقضة وغير المنطقية. كما تأكّد لنا اعتماده على الأسانيد الضعيفة والروايات المردودة، فبخصوص الرواية التي أوردها يعلق صاحب كتاب "الخلاصة الواضحة" يقول: " ...وقد علّق العلماء عليه ووصفوه بالضعيف للأسباب الآتية : فيه زيادة لفظ(فيما بلغنا)، اضطراب السند والمتن، نهي القرآن عن قتل النفس لأن ذلك من الكبائر بحكم أن النفس ملك لله تعالى...."[30] وعليه؛ فلا يمكننا التصديق لهذه الادعاءات في حق النبي صلى الله عليه وسلم النزيه عن كل وسوسات الشيطان باليأس وقتل النفس وما إلى ذلك .

05- الهجرة إلى الحبشة :

يقول بخصوص هذا الأمر:" وهناك سبب ثالث ممكن وهو أنهم هاجروا للتجارة من البديهي وقد أمضى بعضهم ببعض في بلاد الهجرة ما يقارب الاثني عشر سنة أنهم حصلوا على وسائل للعيش، وأنهم قاموا بنشاط تجاري...

ولكن؛ يضيف وات: لو أن المسلمين لم يهاجروا إلى الحبشة إلا للفرار من الاضطهاد، فلماذا بقي بعضهم فيها حتى السنة السابعة بعد الهجرة بينما كان باستطاعتهم اللحاق بمحمد في المدينة؟ لم يصنا شيء يجعلنا نفترض أنّ محمد قال لهم بالبقاء في الحبشة بعد هجرته هو؛ حتى يصبح بإمكانه تلبية حاجاتهم على الوجه الأكمل في المدينة فلو فعل ذلك لترك ما يدل عليه."[31]

يحاول أن يجد أسبابا أخرى فيتساءل:" هل من الممكن أن يكون جزءا من مخطط بارع وضعه محمد ؟ هل كان يأمل بمساعدة حربية تأتي من الأحباش كما يأمل جده الاستفادة من مساعدة حربية على يد أبرهة؟"[32]

ولا يكفي هذا السبب لتوضيح أفعال محمد وأقربائه إلا إذا افترضنا أنهم تولاهم يأس قاتل حملهم على التخلي عن كل أمل في الإصلاح الديني في مكة .[33] لا نلمس مبرّرا مقنعا في قراءة وات هذه، كما لا نلمس استحضارا شاملا لملابسات الهجرة وحيثياتها وأسبابها، من ذلك مثلا أن هؤلاء حاولوا الرجوع إلى مكّة كما جاء ذلك في كتب السيرة نذكر: " أشاع الداهية عمر

بن العاص قبل إسلامه من أن قريشا قد أسلمت، وأن شوكة المسلمين قد أصبحت قوية بعد إسلام عمر بن الخطاب.

وكانت هذه الإشاعة سببا في عودة بعض مهاجري الحبشة، ولما شارفوا مكّة علموا بطلان الخبر، فدخل بعضهم في جوار أحد المشركين مثل عثمان بن مضغون الذي دخل في جوار الوليد بن المغيرة وأبي سلمة بن عبد الأسد في جوار أبي طالب ....وبعضهم تعرّض للأذى صابرا محتسبا..."[34] فضلا عن ذلك فقد استوحى بعض العلماء أنّ الغاية من هذه الهجرة هو تأكيد وحدة الديانات السماوية، وأن العلاقة بين الإسلام والنصرانية والمسيحية هو التوحيد، وقد تجلّى ذلك في عقيدة النجاشي، كما أكّدت هذه الهجرة مشروعية الدخول في حماية غير المسلمين إن لم يترتب عنها أي محرّم.

خاتمة:

من خلال هذه القراءة المقتضبة، لم نعثر على اختلاف واضح بيّن بين رؤية وات ورؤية بقية المستشرقين تُجاه السيرة النبوية. ومن ثمّ لم تختلف نتائج الدراسة إلا في التأويل والقراءة. لكن المبتغى واحد هو ضرب مرتكزات الأمة الإسلامية والطعن في نصوصها المقدسّة القرآن والسنة، ويمكن أن نجمل نتائج البحث فيما يلي:

- العودة إلى الروايات الضعيفة الشاذّة والقفز على الصحيح منها، وذلك بغرض تمرير أفكاره الاستشراقية حول بعض محطات السيرة النبوية كرواية زواج خديجة رضي الله عنها في الأربعين وإنجابها في سن السابع والأربعين أو الثامن والأربعين..

- التناقض في التأويل والقراءة لبعض جوانب السيرة النبوية كالارتياب في موقفه من الوحي أهو من عند الله أم تأليف من عند محمد صلى الله عليه وسلم.

- التحيّز للفكر الغربي والديانات الغربية كالمسيحية واليهودية من خلال اعتقاده بتأثير هاتين الديانتين في النبي صلى الله عليه وسلم، وأنه صاغ القرآن بالاعتماد عليهما كمصدر.

- الانتقائية في تخيّر النصوص والروايات لتأكيد مواقفه الاستشراقية. فقد اعتمد على رواية ابن إسحاق فقط.

- اعتماده التفسير المادي لأغلب محطّات السيرة النبوية تأثّرا بالمادية التي شاعت في المجتمع الغربي.ومحاولة تطويع هذه الرؤيا لقراءة السيرة النبوية.

- الانطباعية وغياب المنطق والعقل في قراءة بعض المواقف كقراءته لسبب الخلوة في غار حراء.

- التغافل عن الروايات التي تثبت نبوّته صلى الله عليه وسلم كتلك التي تخبرنا عن معجزاته صلى الله عليه وسلم، أو تلك التي تخبر عن بركته وتأييده من الله سبحانه وتعالى.

- التحايل والمكر الذي تميّز به هذا المستشرق؛ حيث لاحظنا أنه إذا لم يجد مدخلا في رد بعض المواقف في السيرة النبوية دخل من باب التأويل والقراءة، فكان تأويله خاضعا للرؤيا المادية المعادية للإسلام والمسلمين.

إنّ هذه القراءة تعدّ مقتضبة جدا مقارنة مع ما طرحه من أفكار مغلوط في حقّ الإسلام عامّة، والسيرة النبوية خاصة، نتمنى أن تتاح لنا فرصة أخرى لمواصلة البحث في هذا المجال، كما نقترح أن يعاد النظر في دراسات المستشرقين عامّة بعيون ثاقبة وواعية وناقدة.

الهوامش والإحالات:

[1]- مونتغموري وات: محمد في مكة؛ تعريب شعبان بركات، الطبعة العصرية المكتبة العصرية، صيدا بيروت.ص 57 .

2- عماد الدين خليل : المستشرقون والسيرة النبوية، د ط، دار ابن كثير، دمشق 2005.ص 33.

3- محمد زقزوق : الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري ، دار المنار، ط3، القاهرة مصر 1989 ص 102

4- سورة النحل 103

[5]- محمد عبد الفتاح: أضواء على الاستشراق، دار المنظومة، مصر،1980، ص 21 .

[6]- مونتجموري وات: الإسلام والمسيحية في العالم المعاصر، تر: عبد الرحمان عبد الله الشيخ، الهيئة المصرية للكتاب، مصر ، 1998، ص 40.

[7]- المرجع نفسه، ص 110.

[8]- مونتجمري وات: محمد في مكة، ص 40.

[9]-المصدر نفسه، ص 101.

[10]-وات: محمد في مكة، ص ص 40-41.

[11]- مونتجمري وات: محمد في مكة ، ص 65.

[12]- صفي الرحمان المباركفوري: الرحيق المختوم- بحث في السيرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام- وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، 2007. ص 54.

[13]- مونتجمري: محمد في مكة، ص 93.

[14]- محمد الطيب بخوش: الخلاصة الواضحة في السيرة النبوية، دار الشيماء للنشر والتوزيع،الجزائر،2010، ص 50.

[15]- عبد الملك ابن هشام: السيرة النبوية م1، تح: عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، ط3، ص ص 162.163.164.

[16]- مونتجمري وات: محمد في مكة، ص ص99-100.

[17]- المصدر نفسه، ص 99.

[18]- موتجمري وات: محمد النبي رجل الدولة،تر: حمود حمود، دار التكوين، دمشق سوريا، 1961، ص 24.

19- عبد المتعالي محمد الجبري : السيرة النبوية وأوهام المستشرقين ، د ط، مكتبة وهبة القاهرة مصر د ت ص 80.

20- آية الله السجان : السيرة المحمدية،http://www.imamsadeq.org/ تم الولوج إلى الموقع يوم 2021/10/19 الساعة 19 مساء .

[21]- موتجمري وات: محمد في مكة، ص 109.

[22]- وات: محمد في مكة، ص 110.

[23]- مونجمري وات: محمد النبي ورجل الدولة، ص 29.

[24]- ماهر جواد كاضم الشمري: النبي محمد في مؤلفات مونتجمري وات عن السيرة النبوية –دراسة تحليلية مقارنة- سلسلة دراسات استشراقية، المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية، ط1، 2019. ص 310.

[25]- وات: محمد في مكة، ص 22.

[26]- المصدر نفسه،ص 95.

[27]- المصدر نفسه، ص96.

[28]- وات: محمد في مكة، ص 118.

[29]- محمد ابن إسماعيل البخاري: صحيح البخاري كتاب الطب باب شرب السم والدواء به بما يخاف منه والخبيث ، دار ابن كثير لبنان بيروت 2018. ص 533.

[30]- محمد الطيب بخوش:الخلاصة الواضحة في السيرة النبوية، ص 71.

[31]- موتجمري وات : محمد في مكة، ص 184.

[32]- المصدر نفسه، ص 185.

[33]- المصدر نفسه، ص 185.

[34] - محمد الطيب بخوش: الخلاصة الواضح في السيرة النبوية ، ص 86.

- قائمة المصادر والمراجع :

1- آية الله السجان : السيرة المحمدية،http://www.imamsadeq.org/ تم الولوج إلى الموقع يوم 2021/10/19 الساعة 19 مساء.

2- صفي الرحمان المباركفوري: الرحيق المختوم- بحث في السيرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام- وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر ، 2007.

3- عبد الملك ابن هشام: السيرة النبوية م1، تح: عمر عبد السلام تدمري،، ط3، دار الكتاب العربي. د.ت

4- عبد المتعالي محمد الجبري : السيرة النبوية وأوهام المستشرقين، د ط، مكتبة وهبة القاهرة مصر د ت

5- عماد الدين خليل : المستشرقون والسيرة النبوية، د ط، دار ابن كثير، دمشق 2005.

6- ماهر جواد كاضم الشمري: النبي محمد في مؤلفات مونتجمري وات عن السيرة النبوية –دراسة تحليلية مقارنة- سلسلة دراسات استشراقية، المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية، ط1، 2019.

مجمد الطيب بخوش: الخلاصة الواضحة في السيرة النبوية، دار الشيماء للنشروالتوزيع،الجزائر،.2010

7- محمد ابن إسماعيل البخاري: صحيح البخاري كتاب الطب باب شرب السم والدواء به بما يخاف منه والخبيث ، دار ابن كثير لبنان بيروت 2018.

8- محمد عبد الفتاح: أضواء على الاستشراق، دار المنظومة، مصر،1980

9- محمد زقزوق : الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري ، دار المنار، ط3، القاهرة مصر 1989

10- موتجمري وات: محمد النبي رجل الدولة،تر: حمود حمود، دار التكوين، دمشق سوريا، .1961

11- مونتجموري وات: الإسلام والمسيحية في العالم المعاصر، تر: عبد الرحمان عبد الله الشيخ، الهيئة المصرية للكتاب، مصر ، 1998.

12- مونتغموري وات: محمد في مكة؛ تعريب شعبان بركات، الطبعة العصرية المكتبة العصرية، صيدا بيروت.

Romanization of arabic references :

1–Abd al–Malik Ibn Hisham: Biografia profetului, vol. 1, editat de Omar Abd al–Salam Tadmuri, ediția a 3–a, Casa cărții arabe, D.T.

2–Abd al–Mutali Muhammad al–Jabri: Biografia profetului și iluziile orientaliștilor, DT, Biblioteca Wahba, Cairo, Egipt, DT

3–Ayatollah Al–Sajjan: Biografia Muhammadului, http://www.imamsadeq.org/ accesat pe 19/10/2021 la ora 19:00.

4–Imad al–Din Khalil: Orientalistii și biografia profetului, D. T., Casa Ibn Kathir, Damasc, 2005.

5–Maher Jawad Kadhim Al–Shammari: Profetul Muhammad în lucrările lui Montgomery Watt despre biografia Profetului – un studiu analitic comparat Seria de Studii Orientaliste, Centrul Islamic de Studii Strategice, ediția I, 2019.

6–Muhammad Zaqzouq: Orientalismul și fundalul intelectual al conflictului civilizațional, Dar Al–Manar, ediția a 3–a, Cairo, Egipt 1989

7–Mohamed Tayeb Bakhoush: Rezumatul clar în biografia profetului, Casa Al–Shimaa pentru publicare și distribuție, Algeria, 2010.

8–Montgomery Watt: Islamul și creștinismul în lumea contemporană, tradus de Abdul Rahman Abdullah Al–Sheikh, Autoritatea Egipteană pentru Carte, Egipt, 1998.

9–Montgomery Watt: Muhammad în Mecca; traducere de Shaaban Barakat, ediția modernă, Biblioteca modernă, Sidon, Beirut.

Montgomery Watt: Muhammad, profetul și omul de stat, tradus de Hamoud Hamoud, Casa Al–Takwin, Damasc, Siria, 1961.

10–Muhammad Abd al–Fattah: Lumini asupra orientalismului, Casa Al–Manzuma, Egipt, 1980.

11-Muhammad Ibn Ismail Al-Bukhari: Sahih Al-Bukhari, Cartea medicinei, capitolul despre consumul de otravo oi tratarea cu ea a ceea ce se teme de la ea oi de rou, Dar Ibn Katheer, Liban, Beirut

12-Safi al-Rahman al-Mubarakfuri: Nectarul sigilat - O cercetare în biografia profetului, Ministerul Awqaf şi Afacerile Islamice, Qatar, 2007.